مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 9 / العـدد: 02 (2021)، ص1085- 1102

جدلية الفهم والمعنى

The dialectic of understanding and meaning

ط.د: شهرزاد حمدي[1]
[1]جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2-الجزائر.
Ch.hamdi@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/09/21 تاريخ القبول: 2021/09/27 تاريخ النشر: 2021/10/07

الملخص:

تجمع العقل الانساني علاقة وطيدة بمطلب الحقيقة؛ إذ يحاول باستمرار الكشف عنها وتحقيق معانيها؛ فهي الغاية التي يسعى إليها منذ بداية وجوده. ويعتمد لأجل ذلك مجموعة من الآليات العقلية، أهمّها آلية الفهم، وتأتي أهمية هذه الآلية بوصفها طريقًا أساسيًا نحو الإمساك بما يسمّى بالمعنى، معنى الأفكار، الأشياء والحياة ككل. ضمن هذا السياق تولد جدلية بينهما، تتضّح معالمها في الوظيفة المزدوجة التي يؤديها المعنى، بين سجنه للفهم مع آليات أخرى كالتفسير والتأويل تهدف لمثل هدفه، وبين تحريره من سجنها والاستقلالية به، لتتشكّل جدلية بين الفهم والمعنى.

الكلمات المفتاحية: الفهم _ المعنى _ الجدل _ الحقيقة _ آلية _ التبعية _ الاستقلالية.

Abstract:

The human mind has a close relashinship with the demand for truth he’s constantly trying to uncover them and make sense of them, it’s the end he’s sought from the very beginning of his existence. A range of mental mechanisms are adopted for this, the most important of these is the mechanism of understanding, the importance of this mechanism comes as a fundamental way

of holding the so-called meaning, the meaning of ideas, things, and life as a whole. Within this context a dialectic is generated between them, they are cleary defind in the dual function of meaning, between his imprisonment for understanding and other mechanisms, such as explication and interperation, he erases the same object, and between his release from her prison and his independence, there's a dialectic between understanding and meaning.
Key words: Understanding _ Meaning _ Dialectic _ Truth _ mechanism _ Independence _ Dependence.

المؤلف المرسل: شهرزاد حمدي

مقدمة:

تعد غاية الحقيقة من أبرز الغايات التي يسعى العقل الإنساني إلى إدراكها، ومن أجل موازاة حركتها، فإنه يمتثل لآلية يُراهن عليها كمنفد لنجاة هوّيته المفكّرة وترسيخها وكذلك تحيينها عبر البحث والاكتشاف، وهذه الآلية هي الفهم كميزة إنسانية خالصة أكّدت على شغف الإنسان وطموحاته وتطلّعاته لكشف المستور وفهم حقيقته، حيث يقصد مقصد الفهم لمعرفة حقائق الأمور وإدراك الدلالات الأصلية وتحصيل المعارف والتحوّل نحو شق طريق فكري عميق، وفي المقابل كسر أقانيم التقديس وإزالة حُجب اللافهم وتحطيم حواجز التعقّل وموانع الإدراك والاستيعاب. ومن أهم الإشكالات المطروحة ضمن علاقة أيّ آلية فلسفية مع مجموعة أخرى من الآليات، نجد إشكالية المعنى والدلالة التي تتحدّد وفق الاستخدامات ومدى النجوع والفعالية، وفي هذا السياق تندرج آلية الفهم في جدلية مع المعنى المؤسّس بمعية آليات أخرى، ليكون المعنى سجن الفهم ومحرّره في الوقت ذاته، وعليه: كيف يجعل المعنى كملمح جوهري للتفلّسف آلية الفهم تابعة لغيرها في الوقت الذي يضمن استقلاليتها؟

1_الفهم كآلية لعملية تكوين الفكر

يعبّر الفكر عن نتاج إنساني معقّد تتداخله العديد من الطرق والوظائف، فهو المرحلة الختامية لجملة من المراحل السابقة التي تتراوح بين التحليل والتفسير والإستنتاج وغيرها، إذ يمثل ثمرة جهد عقلي مكثّف من أجل فهم عمل وهدف ذلك العنصر أو تلك القضية. ومن أبرز وأهم الآليات التي يستند عليها العقل الإنساني لبناء منظومة فكره، نعثر على آلية مميّزة هي آلية الفهم كأداة مهمة نحو بلوغ غاية تحصيل منتوج فكري يحمل سمات ذلك الفهم بعينه، فالفكر متضمّن للفهم على صيغة الإستغراق التي تجعل منه لبنة أولى للفكر يتماهى والذات الإنسانية المفكّرة، قصد تحقيق مطمح الوصول إلى بنية فكرية تشكّل في جوهرها نمطا معينًا من الفهم، ولأن آلية الفهم من أكثر آليات الفكر حركية وإنتاجًا، تتداعى عليها سجلات ونقاشات مختلفة، من أبرزها نقاش المدلول.

2_الفهم من قبضة المعنى إلى التحرّر بالمعنى

من الوهلة الأولى يبدو أن هناك مفارقة عجيبة يطرحها هذا العنوان، وتناقضًا وحيرة، تتمثل في كون أمر معين يقوم بمهمتين متناقضتين في الآن ذاته، بين أن يكون أداة للتقيّيد والتضيّيق ومع ذلك فهو مفتاح للانعتاق والانبثاق. نعم هذا هو حال المعنى كنتيجة لتعقّل اللفظ، لفظ الفهم كوظيفة معقّدة وكأسلوب ينتهجه العقل الإنساني لتحصيل المعارف والعلوم وتشيّيد صرح معين من الفكر. وبرؤية تفكيكية تشريحية لمضمون الطرح الذي يبعث على التساؤل بحسّ يرفض أن يمتثل للتناقض السلبي ولا يقبل سوى بفهم حقيقة هذه المفارقة وإمكانية الجمع بين عناصرها، فإن الغرض منه القول بأن هناك مجموعة من المفردات تتقاطع وتقع في قلب طريق الفهم لتتقاسم معه المعنى الخاص به، غير أن هذا المجال الذي يأخذ شكل السجن، فإنه يمثل الرهان بالنسبة للفهم نفسه قصد إنتاج معنى مستقل، بالتالي كسر قيود الإتباع عن طريق المعنى الذي كان سببا في

هذه القيود. وتبدأ سلسلة المصطلحات المتداخلة دلاليًا مع الفهم، بمصطلح التأويل.

2_1.الفهم والتأويل

يفيد مصطلح "الفهم Understanding (E), Entendement (F)، بوجه عام القدرة على الإدراك والتفكير (...)"[(1)] (إبراهيم مذكور، 1983، ص141). أي أنه دعامة قوية لحصول الوعي والتعقّل وذلك من خلال سعيه لتوضيح الرؤى وإزالة تعتيم اللافهم قصد التمكّن من الإمساك بحقيقة الأمور وإدراك ماهيتها. والفهم في إصطلاح **"أرسطو" Aristote**(**384**ق.م_**322**ق.م)، "يقال على النشاط العقلي عامة، وحين يقال في مقابل الحدس فإنه يعني الإستدلال القياسي"[(2)] (مراد وهبه، 2007، ص478). فهو بعيد عن أشكال الصدفة والاعتباط والمعرفة المباشرة الملقاة على العقل دفعة واحدة، بل يتّسم بالمنهجة والترتيب والنسقية المنطقية. غير أن الملاحظ على هذه الفكرة، أن حدودها ضيّقة فهي التي تجعل ضمانة إنتاج الفهم مشروطة بعناصر معينة كلها تصب في قالب التنظيم، غافلة عن عناصر أخرى موجودة وبفاعلية كالفوضى، الرجحان والتلقائية وغيرها.كما ويفيد الفهم ومنه الفاهمة عند الفيلسوف الألماني **"إيمانويل كانط" Immanuel kant**(**1724_1804**م)، "القدرة على الحكم(...) القدرة على التفكير. والحال إن التفكير هو المعرفة بأفاهيم، وإن الأفاهيم هي بوصفها محمولات لأحكام ممكنة على صلة بتصوّر لموضوع لم يزل غير متعيّن"[(3)] (إيمانويل كانط، 1987، ص84)؛ بمعنى أن الفهم هو الإستطاعة العقلية لإصدار حكم أو تقييم على شيء معيّن، والإستطاعة على ممارسة التفكير الذي يتضمّن معرفة بجموعة من الأفاهيم بدورها ترتبط بعالم المحسوسات. ومن هنا فالفهم عملية عقلية مركّبة تربط الموضوعات الخارجية بالمعقولات والمقولات العقلية، فمهمة توليد المعاني الجوهرية التي يزخر بها المراد فهمه ليس من السهل بلوغه،

لهذا تتسلّح وظيفة الفهم بالجمع بين كيانات الذهن وكائنات الواقع. ومن بين المفردات البارزة في حقله والحاضرة عند كل موعد ماهوي حوله، نجد مصطلح التأويل الذي يتواجد بقوة وبصفة مستمرة في الحياة الدلالية للفهم، فهناك إرتباط وثيق الصلة بين هذين المفهومين عزّزته الكتابات والخطابات التي دائما ماتجمع وتؤلّف بينهما على أساس إشتراكهما في نفس الوظيفة المتمخّضة عن نفس المعنى الذي يفيض عنهما، كالقول بالشرح وإزالة اللُبس، قراءة ثانية عميقة وتكوين الأفكار وبنائها. "في الفرنسية Anagogique (Sens)، في الإنجليزية Anagogic Interpretatio، التأويل مشتق من الأول وهو في اللغة الترجيع، نقول أوّله إليه رجّعه. أمّا عند علماء اللاهوت فهو تفسير الكتب المقدسة تفسيرًا رمزيًا أو مجازيًا يكشف عن معانيها الخفية"[4] (جميل صليبا، 1982، ص234)؛ أي أنها عودة إلى الحالة الأصلية والأولى وما تحمله من مقاصد قبل أن تتلبّس بها معانٍ قد تكون في كثير من الأحيان دخيلة عن المعنى الحقيقي. كما يراد من التأويل التنقيب في نصوص الكتب الدينية المقدسة وشرح وتفسير دلالاتها الظاهرة، لاستنطاق مدلولاتها الكامنة وراء المدلول المنكشف بنفسه، وهنا تسقط الحصانة المتجذّرة التي يطبعها رجال الدين لمثل هكذا نصوص وينصبون حاجزًا منيعًا أمام العقل وتحرّكاته الإستشكالية والنقدية والتحليلية، فالتأويل هو محاولة التعقّل والإجتهاد في الحفر عن المعنى

الذي يتوافق معه العقل وحمولات النقل قناعة وإيمانًا. ويجدر التنويه إلى وجود بعض الممارسات التأويلية المتطرّفة والراديكالية، أين تنحو منحى جارح وتسلك طريقًا وعِرًا، فتقوّل النص مالم يقله أو تبالغ في إخضاعه لتعليمات العقل، بالتالي تجعله عرضة للتدنيس وفقدان صلاحية التقديس. وفي الحقيقة إن إنتفاء القداسة بالنسبة للنصوص المشكوك في صحتها بفعل التحويرات والتعديلات المتكرّرة لها من طرف القلم البشري لأمر مفروض على العقل القيام

به، بيد أن تلك النصوص التي تملك ولو جزئيًا تاريخًا حفظ معناها من التحريف وضمن حق العقل في التساؤل وتوليد الإجابات، يكون من المجحف وضعها تحت تصرف التأويلية المغالية التي تضرّ بالحقيقة.

وانطلاقًا من جملة الأفكار المقدّمة، فإن هناك تشابك بين روح معنى الفهم ومعنى التأويل، فكلاهما يفيد التوضيح والتخلّص من ضبابية الرؤى وتضليل الرأي وتعتيم المنظور وتشوّش التفكير وإحلال إنتفاضة ضد إمبريالية المعنى ودكتاتورية الحقيقة التي سطّرت لها السلطات الحاكمة على اختلاف طبيعتها، في المقابل المُضي قُدمًا لتحصيل المعرفة والمجاهدة في التوصّل إلى الحقيقة ولو بصفة نسبية عبر النظر والفحص في الأدوات المفهومية الثابتة وإنشاء مفاهيم جديدة إن ثبت جحود القديمة وجفاء منابعها وذلك بسبب حظرها لكل محاولات التحيين والتجديد والبعث والإرسال، بالإضافة إلى الحفر فيم وراء الدلالات الجاهزة. ويتّحد الفهم والتأويل ويتعايشان معًا ويخدمان بعضهما البعض، حيث يتقلّد التأويل منصب التوضيح وفك الترميز ما إن يُبدي الفهم معارضة في جعل الدلالة واضحة ومن قراءة أولى، وعليه يتم التأكّد والتيقّن من الحاجة إلى التأويلية بالضبط مع سقوط وانهيار الفهم الواضح بذاته[(5)] (هانز جورج غادامير، 2007، ص269)؛ معنى هذه الفكرة أنه في حالة مواجهة القارئ مثلاً صعوبة في فهم النص أو إحدى عباراته بصيغة مباشرة، بحيث يصطدم بصعوبات يُشكّلها كل من الدال والمدلول في تحقيق مطمح الكشف عن المعنى الأول والأصلي، فإنه يضطر إلى طرق باب التأويل بُغية تخطي حواجز اللافهم والعبور إلى مناطق مدجّجة بالدلالات الموجودة خلف هذه الحواجز والموانع، فيتحقّق بذلك الفهم بعدما تعنّت في البداية وهدر طاقاته المُعطاة على نحو مقدّم، إذن يظهر التأويل في اللحظة التي يغيب فيها الفهم المباشر ليعود ويحضر بفضل التأويل الذي أوجده الفهم نفسه.

وتُوطّد هذه العلاقة القائمة بين الفهم والتأويل لما يتعاضد معها منظور الفيلسوف واللاهوتي الألماني **"فريديريك شلايرماخر" Friedrich Shleirmacher(1931_1990م)**، الذي يرى أنهما "متناسجان لُحمة بسداة تناسج جانبي الكلمة الخارجي والداخلي، وفي الحقيقة كانت كل مشكلة عن التأويل هي مشكلة عن الفهم"[6] (المرجع نفسه، ص271). ليمثل هذا التصريح حجّة تدعم أكثر وتقوّي الروابط التي تربط حدود الفهم وحدود التأويل وتبرز لنا التلاحم والتعالق والإنسجام بينهما وتُثبّت مواقع جسور التواصل وتشقّ وتفتح بشكل أعمق معابر التفاعل بين خدمات الفهم وإسهامات التأويل التي تتلاقى حول نقطة محدّدة، هي نقطة الإشتراك في نفس المشكلة حيث تنزاح المشكلات المطروحة والقلق الفكري والأسئلة المثارة حول عملية التأويل وكيفية ممارسة نشِطة من أجل الدفع بمحرك الإنتاج الدلالي للدوران ورفع مستوى جودة إنتاجاته، أيّ بلوغ هدف معرفة القصد المراد وإدراك الحقيقة تنزاح وتنبسط على عملية الفهم، ذلك أن سبيل العثور على مقبض التحكّم في المعنى وفهمه على النحو المطلوب يمر عبر طريق التأويل الذي يتطلعّ إلى نهاية سعيدة تتلخّص في الظفر بنصيب من إشراقات الفهم.

وتستمر قضية تداخل الفهم ومجموعة أخرى من المفاهيم في طرح وتقديم الأفكار والحجج التي تبرّر بها حدوث هذه العلاقة المتقاطعة الأطراف، تعبّر في أصلها وجوهرها عن علاقة معنى ودلالة، ويقع الدور الآن على لفظ متداول بشدّة في الساحة القِرائية التي يتزعّمها كل من لخّص جهوده وكثّفها لاكتساب ذلك المغطّى والمستور والسعي في إيجاد حل للشفرة الدلالية التي تمنع دخول منطقة الفهم، إنه لفظ التفسير وما يثيره من أسئلة حول تفاصيل طبيعة علاقته مع الفهم.

2_2.الفهم والتفسير

بالإضافة إلى تواجد مصطلح التأويل داخل منظومة الفهم، وتمتّعه بمكانة هامة، خاصة وأن تبرير ذلك يرجع إلى المشاطرة الدلالية، فالكل يبحث عن المعنى وبالتحديد المعنى الأصلي للمعنى وبالطبع سيقع الإهتمام على أحد سُبل معانقة هذا المطمح معانقة عملية تجسيدية، فإن هناك مصطلح آخر ضمِن لنفسه مكانة تستدعي إستذكاره واستحضاره متى توجّهنا بالإنشغال صوب الفهم ومتطلّباته، وهو مصطلح التفسير كأحد أهم المفردات الواقعة وقوعًا بارزًا في سياق عملية الفهم. وبصفة متكرّرة تأخذ قالب التأكيد، يرتد هذا التموّضع إلى الإتفاق حول توليد نفس المعنى، فعلاً قد نصب هذا السبب ذاته همزة وصل بين العديد من العوالم المعرفية وانفتاحها على بعضها البعض، لتصل في فترات معينة متحرّرة من قيود الخصوصية والهوّية الشخصية إلى إلغاء الحدود والفواصل.

ويحقّق الإستعمال المفهومي للفظ التفسير أفهومات لغوية، حيث يرادف في اللغة الفرنسية بكلمة Explication، وكذلك الأمر في الإنجليزية، أي Explication، أمّا في اللاتينية فيُستخدم بكلمة Explicatio، هذا من ناحية المقابلات اللغوية في اللغات الثلاث المشهورة، ويشير التفسير من جانب الإصطلاح والإتفاق الإجرائي إلى الكشف والإظهار، بمعنى توضيح الأمر والخروج باللفظ من الدلالة السطحية إلى الدلالة العميقة، وهذا يحدث إذا كان الكلام يتضمّن لُبسًا وخفاءا، ليأتي ما يزيله أو يشرحه أو يفسّره[7] (جميل صليبا، 1982، ص314). فالتفسير إذن آلية لتنوير تصوّرنا وتمثّلاتنا، ثم إنه أيضًا يرادف معنى التبسيط، أي إيضاح الفكرة وتقريب معناها من أجل حدوث عملية الفهم، فالشيء الظاهر يحمل من التعميم ما يجعله معقّدًا وصعبا على الوعي والإدراك لهذا ينبري التفسير إلى محاولة التوهين من حدّة ذلك التعقيد وما رافقه من تعثر في الفهم عبر خطوة التبسيط وتبليغ المعنى المنجلي قصد معرفة القصد. لكن قد يحدث وينزلق

المفسّر ويجانب الصواب إذا ما فكّك رموز وعلامات المعقّد وما يكتنفه من ثقل دلالي كبير بشكل مبسّط كثيرا، لأن التبسيط يتمركز حول معنى واحد، يرى أنه أصدق المعاني وأشملها وأوضحها بل أصوبها!. وبالعودة إلى الحديث عن المفاتحات الماهوية التي تلقي بها مفردة التفسير عن ذاتها وهوّيتها، فإننا ننتهي إلى معلومة مفادها أنها إستراتيجية من أبرز الإستراتيجيات المعتمدة في التعامل مع النصوص والخطابات، حيث تحضر في فلسفة التعاطي المنهجي والمعرفي مع هذه المصادر والمواد الثقافية والإيديولوجية بغرض "الكشف عن مراد المؤلف ومعنى الخطاب"[8] (علي حرب، 1995، ص21)، وهنا يتماثل ويتعالق التفسير مع الفهم، لأن الغاية الأسمى التي يثابران لأجلها، هي الوصول إلى الحقيقة وامتلاكها بعدما كانت منفلتة بفعل عوامل إنغلاق النص ورفضه الإدلاء بالمعنى المقصود، ممّا يستلزم وبدافع كسر وخرق هذه الصلابة، تروية النص قبل أن يستبد به جفاء المعنى. إذن هناك جدل وتفاعل كبير بين الفهم والتفسير، جدل علائقي متشابك ومتداخل أنتجه الإشتراك والتقاسم الموجود والحاصل حول تأسيس المعنى ذاته، فغرض الإفهام يستند على أداة التفسير، وفي هذا المنحى والمنعطف يتردّد على ذاكرتنا قول الفيلسوف الفرنسي **"بول ريكور" Paul Ricoeur (1913_2005م)**: "فسّر أكثر تفهم أحسن"[9] (بول ريكور، 2005، ص15) في معنى بارز أن التفسير طريق للفهم، فكلّما فسّر المفسّر كل ما استدعاه التفسير تفسيره وقرأ القارئ قراءة ثانية أعمق وشرح الشارح شرحًا واضحًا متناغمًا ومنسجما لايعاني تقطيعًا ولا ارتباكًا، حصل الفهم بشكل أفضل وأرزن وأشمل وتم إنتفاء إعتقاد التشكيك والارتياب من أن الفهم المتوصّل إليه ضرب من هذيان وإخفاقات الملكة الفاهمة.

وإضافة إلى قضية المقاسمة الدلالية، أين يحمل كل من الفهم والتفسير نفس المعنى، فكلاهما يفيد مثلا الكشف والشرح، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية

تظهر علاقة الإتصال بينهما في السعي والإجتهاد المشترك للبحث عن ذلك المعنى المخفي، فالتداخل الحاصل مؤسّس بفعل تقاطع المعنى المحمول وكذلك المنتج.
ويتعزّز هذا التناسج في كون عمليتي الفهم والتفسير تحقّقان التواصل الفكري الإنساني، "فنحن نفسر شيئًا ما لشخص ما من أجل أن نجعله يفهم، ويستطيع بدوره أن يفسّر ما فهمه منًا لطرفٍ ثالث، هكذا يميل الفهم والتفسير إلى التداخل، ويغضّ كل منهما الطرف على الآخر"[(10)] (بول ريكور، 2006، ص118)، فالفهم شرط ضروري لتعايش البشرية واحتكاكها وتقاربها مع بعضها البعض، وآلية مهمة لتحصيل المعارف وبناء الأفكار، ويتجسّد هذا الشرط من خلال ممارسة وظيفة تسبقه وهي التفسير بالتالي تتحايث أكثر العلاقة بينهما. إذن فالأمر واضح أن للفهم علاقات كثيرة، هي علاقات معنى ودلالة وهذا راجع إلى طبيعة العقل الإنساني القلِق والباحث دائمًا عن إجابات تتوافق ومبادئه الأولى، وحيث أن هذه الإجابات لا تُريح عقله بشكل يبعث على الإسترخاء بعد هيجان فكري فإنه يستمر في حالة من التوتر وهو يحاول الفهم وما يستدعيه من تأويل وتفسير وأيضا إبداع منهج فني في فن التعامل والتفاعل مع الشيء الذي يخفي حقيقته، وهذا ما يصطلح عليه بالهرمنيوطيقا.

2_3.الفهم والهرمنيوطيقا

إن مُساءلة مصطلح معين في شقّه المفهومي لمن الضرورة الإبستيمية لمعرفة جزء مهم من ماهيته، ثم إن الوعي بمفهومه هو سبيل للتعرّف على المفردات والمصطلحات الأخرى التي تشاركه المحضن الدلالي الذي انبثق منه وعاد ليرسّخ إنتماءه إليه باعتباره الأصل. ولهذا الغرض تتقدّم مفردة الهرمنيوطيقا إلى مُحاكمة المفهوم، حيث تعني كلمة الهرمنيوطيقا (فن التأويل)، كما هو الشأن مع الكلمة المتفرّعة والمشتقة عن الإغريقية والتي إلتقت وتداخلت وتمفّصلت مع لغتنا العلمية، تتوزّع في المراتب والمستويات المتنوّعة للتفكير، تدل الهرمنيوطيقا أولا

وقبل كل شيء على ممارسة فكرية دليلها ومرشدها الفن أو الآلية[11] (هانز جورج غادامير، 2006، ص61). بهذا المعنى تصبح الهرمنيوطيقا فنًا في التأويل والتفسير والقراءة وغيرها، أي مهارة في ممارسة هذه العمليات، كما هو الأمر مع اللفظ اليوناني الذي تقاطع مع اللغة العلمية واصطلاحاتها،كذلك نلحظ أن الهرمنيوطيقا تتميّز بالشمول والإحاطة الفنية لعديد المستويات الفكرية، حيث تحضر وبفن في كل عملية للتفكير. ولأن المعنى هو أحد العوامل المفصلية لتمفّصلات المصطلحات مع بعضها البعض، فإنه كثيرًا ما يقع الخلط ويتم إعلان التطابق فيم بينها، ولنا في لفظ الهرمنيوطيقا ودلالتها مثالاً وجيهًا، فما الذي يميّزها عن التفسير كمرافق دائم لها؟. لقد إنتهت الدراسات والبحوث المتعلّقة بهذه القضية التي يجب الإنكباب نقديًا وتحليليا عليها قصد إنصاف الهرمنيوطيقا وتخليصها من قفص الإبهام حول علاقاتها، إلى إفراد ميزة جوهرية تجعل من الهرمنيوطيقا "منهجا للتفسير Exegesis وأصوله وأحكامه، فإذا كان التفسير وقفا على الشرح أو التعليق الفعلي، فإن الهرمنيوطيقا هي قواعد هذا التفسير أو مناهجه أو النظرية التي تحكمه"[12] (عادل مصطفى، 2007، ص68). إنها الإطار المنهجي الذي يؤطّر هذا التفسير ويسطّر شروطه من أجل تهذيب ومنهجة تعليقاته وشروحاته وأقواله، فالتفسير المتحرّر من أي قاعدة بمثابة ضرب من لعبة الممارسة لا غير، ثم إن هذا الأمر مدعاة لإسقاط الإعتبارات والخلفيات الذاتية وتوليد المعنى إنطلاقا من معناها، كذلك من الممكن أن يضر التفسير الحر بالدلالة الأولى والتي هي محط بحث لأنه لم يحدّد سبيلاً واضحًا ومنظّمًا ومسيّجًا يسلكه نحوها بالتالي قد يجدها ويضيّعها أو يجدها ولا يعي أنه وجدها وما تلك الدلالة إلاّ وقوع الفهم الحقيقي للقصد المقصود، وهنا تلتقي الهرمنيوطيقا مع الفهم كوّنها هي الممهّد الأول والمعبّد الرئيسي لطريق حصوله، حيث تهدف إلى تبليغ المؤوّل أو المفسّر القواعد والمبادئ التي يستندان عليها للإمساك بذلك المعنى المحجوب عنه.

هكذا إذن تشترك الهرمنيوطيقا شراكة قيادية توجيهية لإنتاج دلالة الفهم التي يسعى الفهم نفسه لإدراكها، الفهم كعملية عقلية للقبض على الفهم كمعنى يخصّ ذلك الشيء. يبدو أن العملية معقّدة، ولكن هذا هو الأصح والأصوب لاستنطاق ذلك الذي لا ينتمي إلى زمان ومكان تواجدنا ولكنه حاضر على الدوام من خلال تلك الدلالة المعطاة في مرحلة معينة وتطلب تواجدها في كل المراحل عبر استثارتها هرمنيوطيقا، بإيجاز:"الهرمنيوطيقا هي فن إمتلاك كل الشروط الضرورية للفهم"[(13)] (عبد الكريم شرفي، 2007، ص17)، هي العلّة الأولى لمعلول الفهم، علّة فنية لنتيجة تعبّر عن فن التعقّل.

إذن، قد وصلنا إلى حد أدركنا من خلاله جوهر العلاقة التي تجمع لفظ الفهم بمجموعة ألفاظ التأويل والتفسير والهرمنيوطيقا التي تأبى أن تفارقه، هي ألفاظ ومصطلحات إتفقت وتوافقت دلاليًا، حيث نلحظ خروجها المتكرّر من تحت عباءة الحقل الدلالي المشترك، توزّعت حركته وديناميته بين زرع وحصد نفس المعنى، أي الإلتقاء حول المعنى الذي تبثه وتشير إليه هذه المفردات والمعنى الذي تبحث عنه إنتاجًا وطرحًا. ولأن الدلالة هي جوهر التأصيل وهي عنصر المفارقة في هذا الموضع، فإن الفهم كمصطلح حامل لها يعود وينطلق منها ولكن بصيغة الفرادة.

2_4.الفهم والمخرج من مأزق التبعية

ولو أن المخرج هنا لايعني بإطلاق الإنفصال الكلي والقطيعة النهائية، فلا أحّوج للمصطلح من حاجته لغيره قصد تثوير وتطوير ذاته وإبراز معناها والأكثر المحافظة عليها من تهديدات اللامعنى والعدم بإفراغ محتواها وتجفيف منبعها وإحالتها إلى الذبول والأفول. لكن إن يتحوّل هذا المصطلح المقابل إلى قاهر وقامع للتفرّد، هنا تنبثق تسويغية البحث عن منفد لتخفيف هذا التسلّط ولو أنه

بصيغة مشتركة، ولقد وجد الفهم نفسه كمثال عن هذه الوضعية مضطرًا للمراهنة على من جعله رهينة أي المعنى.

هذا المنهج المعتمد والطريق المسلوك هو ما يترك للفهم كلفظ بارز بروزًا ألمعي في عالم الفكر فرصة للتعبير عن مايختلجه من فيض دلالي وأن يرسم لنفسه مسافة نقدية ذاتية يتحرّك في فلكها إنتاجًا واستهلاكًا، لأن أعباء المعنى تزداد ثقلاً على اللفظ الخاضع لاملاءاتها ووصاياها، غير ذلك فإن الفهم يرفض أن يكون حبيسها ومعتقلها، وضمن هذا النطاق تتجلّى التضمينات الدلالية التي يتمتع بها فطريًا وتلك المضافة على الذخيرة والمخزون الخام والأصلي عبر تنقلاته التفاعلية مع الذين ينتمون إلى عالمه ويتواجدون معه وجودًا بالفعل وليس بالقوة. وتشرع المبرّرات في إظهار نفسها والقيام بالمهمة الموكلة إليها، قصد التبرير لقول إنفصالية الفهم عن عالم المصطلحات الموازية لحركته الدلالية، إنفصالا بالمعنى يعبّر عن إحداث شرخ جزئي في العلاقة القائمة ورسم حد خاص به، وأولى هذه التسويغات والتي تأخذ صفة المحاججات، هي أن الفهم كآلية هامة يرتكز عليها العقل الإنساني لتكوين وبناء منظومة فكرية تتماثل وطبيعة فهمه لتلك العناصر المتمحّور حولها تفلّسفه أعمّ وأشمل دلاليًا من آليات وعمليات أخرى كالتأويل، التفسير والهرمنيوطيقا، فالمعنى الذي يكتسي الفهم ويتغلّغل داخل مفاصله، يمثل فضاءًا رحِبًا وواسعًا يتسع لرحلات الإنسان المتعدّدة والكثيرة، والعنيدة على الإصغاء والتوقّف عند محطة فكرية معينة، بل تواصل مسؤوليتها البحثية مادام الحافز والداعم هو الفهم الذي يؤطّر والأكثر يشتغل على تنظيم هذه المسؤولية، ليست المعرفية فحسب وإنما الأنطولوجية ككل وامتداداتها الحياتية المتفرّعة. وتأسيسًا على المعنى لإنصاف الفهم، والاعتراف بوظيفته الحيوية يُقلّده الفيلسوف الألماني **"فلهلم دلتاي" Wilhlem dilthey(1833_1911م)** صاحب مشروع فلسفة الحياة، منصِبًا محوريًا ومركزًا هامًا للغاية في فلسفته على اعتبار أنه

التجربة الحقيقية التي يجب أن نخوضها ونحن نتعامل مع ظاهرة تدعى بالظاهرة الإنسانية وردود أفعالها الصعبة والمتشابكة والمتحايثة، فعملنا يتجلّى في أننا نفهم الحياة الإنسانية ونفسّر الطبيعة[14] (سمير جواق، 2016، ص7)، وهو تصريح واضح المعالم ودعوى منكشفة الهدف وتحديد نهائي لوظيفة الإنساني في عالم الإنسانية وهي الإنكباب بالفهم على الحياة البشرية المفعمة بالتغيّرات، فالتفسير عاجز عن إتيانها حقها الماهوي، فلا يمكنه أن يتعدّى مجال العلوم الطبيعية التي تتميّز بأنه يمكن حسابها وعدّها وتقنينها، أما علوم الروح (Sciences D'esprit) أو علوم المعنى (Sciences du Sens) فهي عصية على الكم والقياس، لهذا فالحاجة تتمثل في منهج الفهم. إن جعل التفاعل الحيوي مع الظاهرة الإنسانية يتوقّف على الفهم، لإثبات وتأكيد على شمولية معناه الذي يؤصّل تواجده في عمق الذات الإنسانية كأعّقد العناصر الحياتية، وذلك راجع كما تعلمه كل ذات واعية لعديد الإعتبارات والمعطيات والمقولات والملكات التي تتمازج داخل مخبرها مما يفضي إلى وصف أحكامنا عنها بأنها مجرد تأويلات قابلة وبصورة مؤكّدة للتغيير عبر تأويل آخر.

وينحى الفيلسوف الألماني **"مارتن هيدغر" Martin Heidegger (1889_1976م)**، منحًا أكثر عمقًا وتجذّرًا في تعاطيه مع مفهوم الفهم، فهو الدعامة الأولى لوقوع الدازاين في موقع الوجود هناك ومن ثم تحقيق وتمكين وجوده، "فالفهم من حيث هو إنفتاح الهناك، إنما يمسّ دومًا جملة الكينونة_في_العالم، ففي كل فهم عن العالم يكون الوجود هو أيضا قد فهم ويعكس"[15] (مارتن هيدغر، 2012، ص298)، بمعنى أن الفهم إنفتاح على العالم، فينفتح العالم لنا ويحدث الفهم لما يحدث الإنفتاح، وفي خضم هذا الإنفتاح تنفتح الكينونة على العالم حيث تشملها عملية الفهم، لأنها هي من تمارسه وتنفتح به. ولما يتم فهم العالم يأخذ الوجود كذلك نصيبه من الفهم، فهو

جوهره ولأن العملية عكسية فإنه لما يُفهم يكون العالم أيضا قد حصل فهمه. وهذا ما يضعنا في قلب فلسفة **"هيدغر"**، فالدّارس لهذه الفلسفة بكل ما تحمله من عُدّة معرفية ولغوية ومفاهيم ودلالات، يعلم أن السؤال المركزي الذي إنشغل به **"هيدغر"** إنشغالا قاعديًا، هو سؤال الوجود المشوّه في مفكّرة الميتافيزيقا الغربية التي منحت إهتمامًا للموجود وهي تحاول تفلّسف الوجود، ولما بحثوا في الميتافيزيقا فإنهم عالجوها من حيث هي فيزيقا، لأنهم إهتموا بما هو معطى وموجود، غافلين عن ذلك الذي يتواجد خلف الموجود واللامرئي عن المرئي، لهذا السبب يعود الوجود إلى مركز العُني مع جهود **"هيدغر"** من خلال الفهم كآلية وجودية متحقّقة في الوجود ذاته، الذي يتحقّق به، فالفهم لا يعبّر عن شيء بإمكاننا تحصيله وامتلاكه، بل هو أمر آخر، إنه شكل من أشكال الوجود في العالم أو لنقل عنصر يتأسّس عليه هذا الوجود[16] (نصر حامد أبو زيد، 2014، ص33). لنتبين أهمية الفهم في معادلة الوجود وقضية الإنفتاح عليه.

خاتمة:

هكذا يحصل لنا الإستنتاج بأن معنى الفهم ودلالته تتجاوز الدلالة المتقاطعة مع جملة المصطلحات السالفة الذكر فبحسب فلسفات بعض الفلاسفة من أمثال **"دلتاي"** و**"هيدغر"**، هو منفد التوّغل في حيثيات الظاهرة الإنسانية وهو أساس الوجود ولاتحجّب الكينونة، ثم إن المعنى الملتصق بالفهم، يوسّع من دائرة مهامه وانشغالاته فيتعدّى بذلك حدود وأطر تفحّص بنية النصوص والخطابات على نحو ما يفعله المؤوّل أو المفسّر أو الهرمنيوطيقي في غالب الأحيان، بل يمتثل الفهم لمهمة تفحّص الظاهرة الإنسانية والأكثر الأنطولوجيا وتعالقاتها المعقّدة. كذلك يتميّز المعنى المنبثق من الفهم والذي يعتق صاحبه من أسوار الدلالة المتقاسمة، أنه يجعل منه سببًا وغاية في آن واحد، كيف ذلك؟ يكون الفهم أداة أو سببًا وذلك من خلال إستناد العقل الإنساني على

قدراته لبلوغ مطمح تكوين منظومة فكرية بعناصر معرفية وأخرى منهجية شملها الفهم كعلّة أولى لوجودها، كما يكون غاية لأن الفكر كثمرة لجهد الفهم، إنما يحمل جزءًا كبيرًا منه وبالتحديد من سماته وخصائصه التي تفيض بالطبع عن المعنى والدلالة وهكذا يفعل المعنى بالفهم كوظيفة إنسانية خالصة ما لايفعله اللفظ، حيث يضيّق خناقه وذلك بجعله مرافقا دائمًا لمجموعة التأويل، التفسير والهرمنيوطيقا، وفي المقابل يفتح عليه أبواب كانت موصدة في البداية ليصح القول: "الفهم من قبضة المعنى إلى التحرّر بالمعنى". ومتى كان الفهم على اتصال مباشر بنتيجة الفكر، فإنه يصبح بذلك أبرز الطرق التي تؤدي إلى تمكين هدف تكوين بنية فكرية من التحقّق والتجسيد، إنه ملاذ العقل الأول للهروب من هوس تلاشي الهوّية الفكرية، هويّة التعبير عن تفرّد الإنسان وأصالته في فهم كل معطيات الحياة من ذات وموضوع وإقامة نسق فكري حولها.

قائمة المصادر والمراجع:

1_ مذكور إبراهيم، 1983، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية

2_ وهبه مراد، 2007، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء الحديثة

3_ كانط إيمانويل، 1987، نقد العقل المحض، بيروت، مركز الإفتاء القومي

4_ صليبا جميل، 1982، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب البناني

5_ غادامير هانز جورج، 2007، الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ليبيا، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع

6_ المرجع نفسه

7_ صليبا جميل، 1982، المعجم الفلسفي، مرجع سابق

8_ حرب علي، 1995، الممنوع والممتنع، نقد الذات المفكرة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي

9_ ريكور بول، 2005، صراع التأويلات، دراسات هرمينوطيقية، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة

10_ ريكور بول، 2006، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي

11_ غادامير هانز جورج، 2006، فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف، بيروت، الجزائر، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي

12_ مصطفى عادل، 2007، فهم الفهم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع

13_ شرفي عبد الكريم، 2007، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، بيروت، الجزائر، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف

14_ جواق سمير، 2016، دلتاي وصياغة التأويلية كأساس منهجي للعلوم الإنسانية، المغرب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود

15_ هيدغر مارتن، 2012، الكينونة والزمان، بيروت، دار الكتاب الجديد

16_ أبو زيد نصر حامد، 2014، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، بيروت، المغرب، المركز الثقافي العربي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود